عابرُ... ميناء !!

ثوبُه الجميل، ثوبُه الحريريُّ المقصَّب، لا أبهى ولا أكمل، حاكَه خيطاً خيطا، وحبكَ عقدَه عقدةً عقدة، تحسسه بيده مُتَّسعَ الأحداق ليلةً تلو ليلة، يتأكَّد من تمامِ رونقِه، وجلاء حرفته فيه، مقيماً الحُجَّةَ على نفسِه بالتَّفرُّد الذي لا يُرام؛ من يا تُرى يليق!! اندفاعُه الأول... أدخله في رأسه وأسبله عليه، تراجع خطواتٍ إلى الوراء، وقف يتأمل منبهراً بكمال قيافتِه عليه، يتبختَرُ أمامَه الاندفاعُ به، يتراقصُ الثوب عليه مزهوا؛ ياللكمال!!. يطير بثوبه فرحا، يُسبغ رضاءه على الاندفاع، حتى تلبَّسَ الاندفاعَ زهوُ الثوب، ما درى المسكين أنَّ الثوبَ صابغُه، لا أصلٌ فيه.

يختال ويُباهي، يزايدُ ويفاوض، وثوبه عنه ينحسر، مرةً، فمرةً، فمرة، يزداد انحسارُه، يوشك أن يسقط عن كاهليه، يتقزَّمُ الاندفاع.. وما درى، يُبالغُ في مساوماته، معوِّلاً على سابقِ رضىً طاولَه السما.. مسكين!! يُسارع بثوبه، يخلعُه برفق الكون، يحمله بعينيه، قبل أن يهبطَ إلى يديه. يتخلَّى الاندفاع عن الثوب طواعية، مظنَّةَ أنَّه الثوب، وأنَّ الثوبَ هو، يناوله لصاحبه بلا اكتراثٍ ظاهري.. مؤمِّلاً رجوعاً. يحملُ ثوبَه، يحتضنه، يبكي من ليس فيه، يوسُع من ليس فيه استجداءً.. أن يعود. يحزمُ أمرَه، يمسحُ دمعاً أراقَه على ثوبٍ بلا صاحب، يرحلُ مع ثوبِه يحملُه فيه... يلتقطُ الاندفاعَ الثاني. يتهافتُ ألقاً، يفرحُ حدَّ الامتلاء، يشكرُ نفسَه فيه أن هدتْهُ إلى اندفاعه، كاملاً كاملا، آلقاً ذاخراً كان، تماهي معه هوساً، تنفَّسَه، عاش فيه. ألبسه الثوب، أسدَلَهُ عليه، ما أكمله!!، ما أكمله!! احتضن نفسَه فيه، عاشَه، أقبلت عليه دنياه من كلِّ صوب، حازَ تمامَ الرضا. لم يدرِ لم احتضنه ذات يوم فوجد فيه عبقَ الاندفاعِ الأول، وجده فيه، فارتدَّ على نفسه مذهولا..

لِمَ الآن؟!!،

لِم !!!.

وجده عبقاً أشدَّ ما يكونُ العبق، أرَّقَه، أسهدَه، أصابته لوثةُ الثوب ولعنتُه، في لحظةِ جنون مشؤومة.. انتزعه انتزاعاً، انتزعه بكلِّ قوتِه، و اندفاعه الثاني مبهور الأنفاس، لا يكادُ يُبين. يُهرعُ بثوبه إلى اندفاعه الأول.. اندفاعه المنتصر، نصفُ انتصارٍ ربما، ولكنَّه في العُرفِ ..انتصار.

يُسدله عليه ويجلس يتأمَّل، يغرقُ في تأمُّلاته، يشدُّه الثوب، يُبهرُ أنفاسَه، يحتضنُ الثوب، يعيشُ معه، يَغُضُّ الطرف عن اندفاعٍ فيه.. وليس منه. يرقُبُ نحولاً، ذبولاً، يُلامسُ ثوبَه الأرض، عيناه الملهوفتان الجزعتان تراقبان، يغبرُّ الثوب، تهترئُ أطرافُه ، يكادُ يتحوَّلُ أمامَ عينيه أسمالاً مشوَّهة. يلهث، يزيدُ لهاثُه، يبتلع ريقَه بالكاد، يحتشد العرق على جبهته، يغمره، دقَّاتُ قلبه تزيد.. تزيد.. تزيد. مشلولا، فاقدَ الادراك، حيرانَ أسفا، يُراقب ثوبَ عمره يذوي أمامَ ناظريه، وما استطاعَ حراكا. يحزمُ أمره، يَستلُّ ثوبَه استلالا، بخفرٍ.. أو يكاد. يُهرع فيه على قارعةِ ميناءٍ... وينتظر.